



حين نامت إيلا

تأليف

جلیلة ناصر

عنوان الكتاب: حين نامت إيلّا

الموضوع: رواية

تأليف: جليّة ناصر

رقم الإيداع بالدار : 2026/0548

الترقيم الإلكتروني EBIN : 60-54-1-260525

الناشر: أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

alkatebacademyforpublishing@gmail.com

01112357473

مصر



حين نامت إيلا

تأليف

جلیلة ناصر

٢٠٢٦



إهداء...

إلى المدينة التي لا تنام، وتشيع فيها الطفولة، إلى الأزقة
التي تعرف أسماء الغائبين أكثر من وجوه الحاضرين
وإلى النوافذ التي ما زالت تحدّق في الطرقات القديمة
ولم يعد في المكان من يشبه الذاهبين .

**”الذاكرة ليست ما حدث لنا...
بل ما لم نستطع النجاة منه بالكامل”**

”حين نامت إيلّا“

لم تكن تعلم أن النوم أحياناً لا يعيدنا كما كنا، بل يترك فينا شيئاً لا يعود أبداً.

كانت بين ذراعي أمها، في لحظة هادئة تشبه ما قبل كل شيء...

لحظة لا يبدو فيها العالم قادراً على أن يتغير.

ثم نهضت الأم إلى الغرفة الأخرى، خطوة واحدة فقط...

لكن في تلك المسافة القصيرة، كان الليل نفسه يفصل بين غرفة ما زالت تقاوم، وأخرى انهارت فجأة.

لم يكن هناك إنذار... ولا علامة...

فقط فراغٌ صغيرٌ اتسع فجأةً حتى ابتلع كلَّ ما بعده.

فتحت إيلّا عينيها ونظرت حولها...

وكل شيء يبدو مألوفاً بشكلٍ مؤلم، كأنه يرفض الاعتراف بها.

لم تعد تشعر أنها حيّة كما كانت، ولا غائبة كما يظن الآخرون...

بل شيئاً بين الاثنين، لا اسم له.

ومنذ تلك اللحظة، لم يعد السؤال: ماذا حدث لها؟

بل: كيف يمكن لروح أن تستيقظ في جسدٍ لم يعد يشعر بها؟

استيقظتُ ولم أجد جسدي.

بحثتُ عن يدي الصغيرة التي كانت تحتضن أُمي، فلم أجدّها.
لمستُ شعري المبعثر، فلم أشعر بيدي تتسلل بين خصلاته.
كأنني هواءٌ بين الغبار.

نظرتُ حولي

رأيتُ أُمي تجرّ جسدها بثقل...
كأنما فوق ظهرها تسعون جبلاً.

كان أبي يركض بين أشياء لا أعرف أسماءها، يفتح يديه ثم
يغلقهما بسرعة، ينادي اسمي بطريقة لم أسمعها منه من
قبل... كأن صوته يتكسر كلما قال: "إيلّا".

وأُمي... كانت أقرب إلى الصمت من أي شيء آخر

عيناها تبحثان في كل زاوية، في كل ظل، حتى في الأماكن
التي لا يمكن لطفلة أن تختبئ فيها.

كانت تمشي ببطء، كأنها تخاف أن تنشق الأرض تحتها
أكثر.

اقتربتُ من أُمي، وقفتُ أمامها تمامًا...

لكنها لم تشعر بي.

مددتُ يدي نحو وجهها... ولم أَلَمَسْ شيئاً.

كل شيءٍ بدا كما أعرفه، ومع ذلك كان هناك شيءٌ ناقص...
شيءٌ لا أستطيع لمسه، لكنني أشعر به.

تقدّمتُ خطوة.

لم أشعر بالأرض.

خطوة أخرى...

وكأنني لا أتحرك، بل أمحي بهدوء من المكان دون أن
يلاحظ أحد.

حاولتُ أن أقول شيئاً.

اسمي... أي صوت... أي دليل على أنني هنا.

لكن الصوت لم يخرج.

لم يرتطم حتى بالهواء.

مرّ من خلالي واختفى.

التفتُ بسرعة، كأنني أبحث عن نفسي بين الأشياء.

لكنني لم أكن موجودة في أي مكان منها.

كل شيء كان حقيقياً... إلا أنا.

ثم بدأ الخوف يتسلل.

ليس الخوف الذي أعرفه...

بل ذلك الفراغ الذي يأتي حين تفهم متأخراً أن شيئاً ما انتهى، دون أن يخبرك.

وفي تلك اللحظة...

تذكرت الانفجار.

صوت حاد...

ضوء يقطع العتمة...

ثم سقوط سريع.

ثم صمتٌ مختلف.

ليس صمت نوم، بل انقطاع كامل لما بعده.

حاولت أن أهرب من الفكرة، أن أجِد تفسيراً آخر لما أشعر به، لكن كل طريق كنت أسلكه كان يعيدني إلى نفس اللحظة...

إلى ما بعده مباشرة، حين لم أعد أشعر بشيء كما كنت.

نظرتُ إلى أُمي مرة أخرى.

كانت تجلس في مكانها، وتحدّث الفراغ كما لو أنني سأجيب
في أي لحظة.

لكنني لم أجب.

ليس لأنني لا أريد...
بل لأنني فهمت شيئاً بسيطاً وقاسياً في آن واحد:

هم لا يرونني...
لأنني لم أعد بينهم أصلاً.

تراجعتُ خطوة داخل نفسي، كأنني أحاول أن أبتعد عن
الحقيقة التي بدأت تقترب أكثر من اللازم.

إذا كنت هنا الآن... ولا أحد يراني، ولا أحد يسمعني، ولا
أحد يلمسني...

فأين أنا بالضبط؟

وهل ما زال يمكنني أن أعود...
أم أن العودة نفسها لم تعد موجودة ؟

نظرت حولي، المدينة كلها صارت مقبرةً مفتوحة، أطفالٌ
مثلي خرجوا من أجسادهم، وأصبحوا يلعبون معي لعبةً
جديدة:

“من يطير أعلى!”

أسمع أصوات الطائرات فوقنا، كأنها تلاحق حتى أرواحنا.
وأسمع أغنية طفلٍ حيٍّ، يغني وهو يجلس بين الركاب، يحاول
أن يتذكّر أغنية غنّتها له أمه قبل أن تنام إلى الأبد.

حين وجدوا ما تبقى مني، لم يسمحوا لأمي بالاقتراب.
وقف الرجال حول المكان بصمتٍ ثقيل، وتبادلوا نظراتٍ لم
أفهم معناها.
أما أمي، فكانت تحاول أن تشق طريقها بينهم.
تدفع هذا، وتتجاوز ذاك، وتقول بصوتٍ مرتجف:
دعوني أراها.

لم يُجبها أحد.

وكلما طال صمتهم، ازداد الخوف في عينيها.

ثم شقّت طريقها بنفسها.

ركضت نحو الركّام.

ركضت كأن المسافة بين قلبها والحقيقة يجب أن تُقطع دفعةً واحدة.

لكنها توقفت فجأة.

توقفت قبل أن تصل.

كأن قلبها رأى ما لم تره عيناها بعد.

لم تصرخ

حدّقت طويلاً في المكان.

طويلاً إلى درجة أنني ظننت أنها لم تعد ترى أحداً.

وصلت أُمّي إلى الحافة التي لا يوجد بعدها بكاء.

هناك مكانٌ في الحزن لا تصرخ فيه الأمهات، بل يصمتن،
كان شيئاً في داخلهن انطفأ دفعةً واحدة.

ثم قالت بصوتٍ خافت:

— لا... هذه ليست إيلا.

وأعادت الجملة مرةً أخرى.

ثم مرةً ثالثة.

وفي كل مرة كانت أضعف من سابقتها.

— هذه ليست إيلا...

كان الكلمات قادرة على تغيير ما حدث.

كان إنكار الحقيقة قد يعيد الزمن إلى الوراء.

اقتربتُ منها.

كنت أصرخ:

أنا هنا يا أمي.

أنا هنا.

لكن صوتي لم يصل إليها
ولا مرة.

ثم مدّت يدها نحو شيءٍ بين الركّام.
شيءٌ صغيرٌ أحرقتَه النار.
دميتي.

الدميّة التي كنتُ أنامُ إلى جوارها كل ليلة.
حملتها بين ذراعيها، وضمتها إلى صدرها
عندها فقط...

انهارت.
ليس لأن أحداً أخبرها أنني متُّ.
بل لأن الدمية عادت وحدها.
أما أنا...

فلم أعد.

في الليل، عندما ينام الجميع، تغرق في حزنها وتبكي؛
كل دمعة تنزل منها تصبح نهرًا أغرق فيه.
أصرخ: أنا هنا يا أمي! لا تبكي.
لكن صوتي يتلاشى، لا يصل إلا إلى الريح.

أشعر أحيانًا أنها تحسّ بي.
حين يمر نسيم خفيف، تبتسم فجأة، وتقول: جاءت إيلا.
فتغمرني فرحة لا يراها أحد.

أنا ما زلت هنا، يا أمي.
بين يديك، في قلبك وملتصقة بروحك؛
لم أتركك؛ فقط صرتُ طيفًا يرافقك حتى النهاية،

لم تُصدّق موتِي، ما زالت تضع لي كسرة خبز في زاوية
الصحْن، وتُخبّي لي قطعة سكر في جيب ثوبها.

كلّما سمعت صوت قصف، تغطي أذنيها براحتيها، ثم تنظر
حولها تبحث عني، كأنني سأخرج من بين الدخان.

أقترب منها، أضع رأسي على صدرها... لكنني لا أجد
دفئه.

أمدّ يدي الصغيرة لأمسك بأصابعها، فلا أشعر بشيء.
صوتها وحده هو ما يربطني بالحياة.

كنت أستيظ على صوت أمي وهي تفتح النافذة كل صباح،
فيتسلّ الضوء إلى الغرفة كأنه يعرفني منذ زمن. توقظني
بلطف، ثم تضحك حين أتظاهر بالنوم قليلاً.

كان البيت دافئاً بطريقة لا يمكن شرحها. رائحة الخبز تملأ
المكان، وصوت الأواني في المطبخ، وخطوات أبي في
الممر... تفاصيل صغيرة كانت تمنح الحياة معناها، رغم أن
شيئاً خفياً كان ينقصها دائماً دون أن نفهمه.

كنت أذهب إلى المدرسة مع أصدقائي. نمشي معاً، نضحك
في الطريق، نتأخر قليلاً ثم نركض خوفاً من الجرس. نتبادل
أشياء تافهة لا معنى لها، ونظن أن الغد نسخة مكررة من
اليوم.

في الحيّ، لم يكن أحد غريباً عن أحد. الجار يسلم، والأطفال
يلعبون حتى يختفي الضوء، والسماء فوقنا تبدو مطمئنة لا
تحمل أي سؤال. كنا نعيش كأن كل شيء طبيعي... لكننا لم
نكن نملك أماناً كاملاً، فقط اعتياداً على أن الحياة مستمرة.
كنت أظن أن الخوف حكاية بعيدة، نسمعها ثم نغلقها مع
ضحكنا ونمضي.

ثم جاء ذلك اليوم... لم يبدأ مختلفاً، لكنه انتهى بطريقة لم
نكن مستعدين لها. ومن بعده، لم يعد أي شيء كما كان.

كنتُ أحب أن ألعب مع أصدقائي كثيراً .

حَـجَـلَة

غُـمَّـيْـضَة

طَا بَة

بَيْت بُيُوت

بِيع وَشِرِي

عَـرَايس

الكراسي الموسيقية

طَيَّارة ورقية ، نِطَّ الحَبْل .. اليوم لم يعد هناك بيت ولا
حبل.

لكن اصدقائي الذين بقوا أحياء اخترعوا لعبة جديدة:

القفز فوق الركام.

أراهم يركضون بين البيوت المهتمة...

يضحكون، نعم، يضحكون!

رغم كل شيء، يضحكون.

وجد أحمدُ إطارًا محترقًا، فدحرجه، وتبعه الأطفال ركضًا
وضحكًا.

فيءٍ ربطت كيسًا بخيطٍ قصير، ورفعته عاليًا كطائرةٍ
ورقية.

كنتُ أركض خلفها أحاول أن أمسك الخيط،
لكن يدي لم تعد تُمسك شيئًا.

وفي الجهة الأخرى، كانت نغم وسمر وبيسان ويارين
يتقاسمن كسرة خبز واحدة، ويغمسنها في الماء ويضحكن
كأنهن يأكلن وليمةً. جلستُ بينهن أحاول أن أشاركهن،
لكنهن لم يرينني.

أقفز معهم فوق الحجارة،
وأركض خلف العجلة،
وأضحك معهم بصوتٍ لا يسمعه أحد.

في لحظةٍ أنسى أنني لم أعد مثلهم،
أنسى أنني أصبحتُ طيفًا.

وحين ينتهي اللعب،
ويعودون إلى أحضان أمهاتهم،
أبقى وحدي.

أحدّق في الركّام وأهمس:
— عودي إلى السماء.

عودي إلى المكان الذي لا تستطيع اللغة أن تصفه
كاملاً،

الجمال فيها خُلق بطريقةٍ لا تشبه الدنيا أبداً.

أرضها مضيئة،
ليست شمساً ولا ناراً،
بل نورٌ هادئ يملأ المكان ويجعل الروح مطمئنة.
أنهارها تجري بين القصور والحدائق،
ماؤها صافٍ كالكريستال،
وفيها أنهار من لبنٍ وعسلٍ وخمرٍ لا يؤذي ولا يُذهب
العقل.

أشجارها عظيمة،
أغصانها منخفضة قريبة،
إذا اشتهى القلب ثمرةً؛
وصلت إليه دون تعب.

والورود هناك بألوان خلافة لا تذبل،
والهواء معطر كأن الرحمة نفسها تمرّ في المكان.

قصورها عالية،
مبنية من ذهب وفضة ولؤلؤ،
وأبوابها واسعة،
لا يُغلق فيها باب خوفًا أو حزنًا.

في الجنة...
الوجوه أجمل،
والأصوات أهدأ،
لا مرض ولا تعب ولا بكاء.
كل من يدخلها يشعر وكأنه عاد أخيرًا إلى المكان الذي
خُلقت روحه لأجله.

وأعظم ما في الجنة...
أن القلب هناك يبقى سعيدًا إلى الأبد،
لا ينكسر،

ولا يفقد،

ولا يحزن مرةً أخرى.

حتى القلوب التي انكسرت ألف مرة،
يُعِيدُهَا الله كاملة... كأنها لم تُؤذَ يوماً.

أحياناً، أقترّب من نهر صافٍ،

أضع قدمي فيه، وأضحك كأن المياه تدغدغي،

أقول: هل هذا البحر الذي كنت أبحث عنه؟

ولم أستطع رؤيته؟

فيردّ طفل بجانبني:

- البحر هنا أجمل؛ لأنه لا يغدر ولا يُغرق أحداً.

أنا سعيدة! نعم، سعيدة جداً.

لكن، في لحظة، يأتيني صوت من بعيد: بكاء أمي.

حينها يضيق قلبي كأنني لم أعد هنا، بل عدت إلى تلك
المدينة.

أشتاق إلى صوت أبي وهو يناديني من نافذة المنزل وإلى
أمي حين تمشط شعري وتوصيني بأشياء كنتُ أتذمر منها ثم
أنساها. أشتاق إلى ضحكات أصدقائي، وإلى الأحاديث
الصغيرة التي لم نكن نعلم أنها ستصبح ذكريات.

كنتُ أظنّ أن الحياة طويلة، وأن هناك متسعًا لكل شيء.
متسعًا لأكبر، ولأحقق أحلامي، ولا أعيش أيامًا أكثر مع
الذين أحبّهم.

أن أكبر عامًا بعد عام، وأن أرى الغد الذي كنتُ أنتظره
دائمًا.

لم يكن في قلبي وداعٌ أخير، ولا كانت لديّ فرصةٌ لأقول:
انتظروا... ما زال لديّ عمرٌ أريد أن أعيشه.

أحيانًا أتساءل: ماذا لو بقيتُ قليلًا؟ كم ذكرى أخرى كان
يمكن أن أصنع؟ كم مرّة أخرى كان يمكن أن أضمّ أمي؟ وكم
ضحكةً أخرى كان يمكن أن أشاركها مع أبي وأصدقائي؟

هنا أضحك، وهناك تبكي امي...
هنا أجد السلام، وهناك يسرقون الطفولة كل يوم

الأطفال هناك متعبون جدًّا
يجرّون عربات مليئة بالماء،
يحملون على أكتافهم ما يفوق أعمارهم.

من نزوح إلى نزوح..

رأيتُ أميرَ يمشي بخطواتٍ متعبة، يحمل أخاه الأصغر تيم
بين ذراعيه النحيلتين.
يضمّه إلى صدره كأنه يخبئه بداخله، ويهمس له بصوتٍ
خافت: "لا تخف؛ أنا معك."
يتعثّر قليلاً ثم يواصل السير، وكأن ثقل الطريق يخفّ ما
دام أخاه بخير...

الطفولة في غرة لا تدوم إلا لحظة واحدة، ثم تُسرق:
مرّة برصاصة، مرّة بجوع، مرّة بخوف لا ينتهي.

أصواتنا تختلط بهم.
نحن الذين رحلنا، وهم الذين بقوا، جميعنا نصرخ معاً:
- نريد أن نعيش!

لكن الصرخة تضيع بين هدير الطائرات.
فتعود إلينا عوداً حزيناً، كأنها أنين البحر حين يُغلق عليه
الحصار.

نحن الأطفال لم نحلم بأحلام عصيه
أحلامنا بسيطة:
مدرسة بلا قصف،
خبز ساخن،
بيت لا ينهار،
حضان أمّ دافئ وآمن
هل هذا كثير؟!

طفولتنا سُرقت مرتين:
مرّة حين وُلدنا تحت الحصار
ومرّة حين غادرناها قبل أن نكبر.

أريد أن أضمها ولكن لا أستطيع
أمي.

أعرف أنها لا تنام منذ أن رحلتُ.
عيناها صارتا مثل بحرٍ مثقوب،

مالح ومرهق، يفيض ليلاً ولا يهدأ نهاراً.
كل صباح، تجلس عند بيتنا المهْدَم،
تمسك ثوبي الصغير بين يديها.

تغسله بماء لا يكفي للشرب،
ثم تنشره على حبلٍ مقطوع،
وكأنها تنتظرني أن أعود وارتيه.
ثم تصمت، وتبتلع دموعها كي لا يراها أحد.

ليست وحدها من تبكي،
لكن دمة الأم مختلفة،
دمة الأم ليست ماءً،
إنها نار تحرق صدرها من الداخل.

أسمعها كل ليلة تحدّثني:
– كنتِ تحلمين بالبحر، يا روجي. أعدك... إذا خلصت
الحرب آخذك ونمشي على الشاطئ، نلعب بالرمل ونضحك.
فتنقطع الكلمات في حلقها، ويتحول الوعد إلى بكاء.

أقترب منها، أضع يدي الصغيرة على قلبها.
أتمنى لو تعرف أنني هنا، أضحك وألعب في مكان لا
يصل إليه الوجد؛
لكنها لا تسمعني.
كل ما تسمعه هو الصمت الذي تركته ورائي.

أبي يحاول أن يبدو قويًا.
يعود كل يوم محملاً بأخبار ثقيلة: صديق استشهد، بيت
انهار، جارة فقدت أبناءها.

يجلس قرب أمي ويقول: اصبري.. الله كبير.
لكن حين ينام الجميع، أراه يبكي بصمت، كأن دموعه
سرّ لا يجوز أن يُكشف.
وأنا بينهما... أحاول أن أضُمَّهما فلا أستطيع.

في أحد الأيام، اتبعت خطوات أبي إلى الساحة الكبيرة.
كان الناس يقفون صفًا طويلاً، وجوههم شاحبة،
عيونهم مرهقة.

الأطفال يتشبثون بأذيال أمهاتهم،
يكون بصوت متقطع من الجوع.

الكل يرفع رأسه إلى السماء،
يتتبع طائرات صغيرة تمرّ من بعيد.

تحمل أكياس غذائية،
كل العيون علّقت قلوبها بكيس أبيض
يسقط من السماء كأنه نجمة أمل.

رأيت رجلاً مسنّاً يجلس على الأرض، يضع يده على
بطنه، يهمس: لو خبزة بس... أعيش يوم زيادة!
وبجانبه، صبي نحيل يلعب أصابعه الفارغة كأنه يتذوّق وهم
الطعام.

حين سقط أحد الأكياس، ركض الجميع نحوه
تدافعوا، تعثروا فوق بعضهم،
كانهم يركضون خلف الحياة نفسها.
امرأة رفعت طفلها عاليًا لتحميه قبل أن يسحق تحت
الأقدام.

وفي مكان آخر..

من شوارع غزة الضيقة،

كان الناس يجرون أجسادهم المنهكة بحثاً عن الطعام؛

لم يكونوا يبحثون عن الرفاهية، ولا عن موائد عامرة،

بل عن لقمة تحفظ طفلاً من البكاء وجائعاً من الانهيار.

تجمّعوا حول شاحنة مساعدات

الوجوه متعبة، والعيون معلقة على أكياس كأنها حياة.

كان الزحام يضغط على الشارع كصدرٍ مكتوم النفس،

وفي هذه الأثناء تم إطلاق النار على الجموع المحتشدة!

توقفت الشاحنات، فانفجر الناس حولها دفعةً واحدة، أيادٍ

ممدودة، أصوات متداخلة، صراخ، وبكاء بلا دموع. تمزقت

الأكياس وانسكبت على الأرض، واختلطت بالتراب!

بين الأرجل المتدافعة، انحنى يحيى ليجمع الدقيق بيديه
الصغيرتين

يلتقطه من بين التراب والحصى، ينفخ عنه الغبار بأنفاسٍ
قصيرة، ثم يضعه بحذر داخل حقيبة مدرسته، تلك الحقيبة
التي كانت يوماً تحمل دفاترَ وأحلامًا، صارت اليوم تحمل
دقيقًا ووجعًا.

كلما امتلأت حفنة، ضغطها بيده كأنه يخاف أن يضيع
شيئًا.

رفع رأسه مرة نظر حوله بخوفٍ سريع، ثم عاد للجمع.

لم يكن يفكر بالنجاة بنفسه؛

بل كان يفكر بأخوته حين تعود يداه فارغتين.

شدّ الحقيبة بصعوبة، ومسح يديه بقميصه، ثم انسحب
بهدهوء من بين الزحام، كأن ما حمله كنز لا يجب أن يراه
أحد،

وبينما كان يمشي سمع صوت انفجار يليه أصوات
الرصاص.

التفت وإذا بصاروخ حرق البشر مع أكياس الدقيق!

لم يتوقف القصف.
مربعاتٌ سكنية كاملة تحوّلت إلى رماد، كأنها لم تكن يوماً
سوى أثرٍ عابرٍ لحياةٍ انطفأت في لحظة ما.
النيران كانت تلتهم البيوت كجوعٍ لا يشبع، والهواء امتلأ
بدخانٍ أسود يخنق كل محاولةٍ للتنفس.
ساد صمتٌ ثقيل بعد الانفجار... ليس هدوءاً، بل انقطاعاً
مفاجئاً لنبض المكان.

ثم بدأت الأصوات تتسلل من تحت الركام؛
نداءاتٌ واهنة، بكاءً متقطع، وأنينٌ يخرج بصعوبة من بين
الحجارة، ويدٌ صغيرة امتدت من تحت الأنقاض كأنها
تستنجد بالحياة .

الناس يركضون في كل اتجاه؛ بعضهم يبحث عن ناجين،
وبعضهم يحفر بأيديه العارية بين الركام، كأنهم ينتزعون
الأمل من قلب الموت نفسه.

ومن بين الدخان المتصاعد من البيوت المهّمة..

رأيت ريان، ثيابه ممزقة، وقدماه تنزفان بالدماء،
عيناه متورمتان من البكاء.

ينادي بصوتٍ مبجوح:

- ماما.. وينك؟

صوته يضيع بين الزحام،

يمرّ بجثثٍ ممدّدة،

يلمس وجوهاً مغطاة بالدماء،

يقلبها بخوف، ثم يصرخ:

- مش أمي.. وين أمي؟

كلما اقترب من أصوات الإسعاف،

يركض يظن أنه سيجدها بين الأحياء.

تعب، خاف، وجلس على الرصيف،

خبأ وجهه الصغير بين يديه،

وهمس وكأنه يحاور الغياب:

- ماما.. لا تتركيني.

وهناك رأيت ميرا تمسك بطرف قميص أحدهم وتسأل
بخوف:

- لقيتوا أهلي؟

أصوات البكاء، الدعاء، وأنفاس المتعبين اختلطت تحت
سماءٍ خانقة،
وكل شخص هناك كان يبحث عن قطعةٍ من قلبه عن
روحه.

الناس يركضون، وأصوات الإسعاف بعيدة.

الإسعاف لم يلحق، وكيف سيلحق والشوارع مليئة
بالركام؟!!

لم تكن المأساة تسير على وجهٍ واحد.
كانت تتنقل بين الناس، تختار ضحاياها واحدًا تلو الآخر.

في مكانٍ امتلأ بالناجين والمفقودين معًا، استوقفني مشهدٌ بدأ
أثقل من كل ما حوله.

امرأة حامل تسند بطنها الكبير، وكأنها تحمل العالم كله في
داخلها.

تبحث عن ماء، عن ظل، عن حياة.

وفجأة سقط صاروخ بجانبها..

سقطت على الأرض، اتسعت عيناها وانشقّ بطنها

كما لو أن الحرب اقتلعت المستقبل من رحمها!

دمعت عيناها.. لا على نفسها، بل على طفلها الذي لم يرَ
الحياة.

وتناثرت دماؤها كأنها حبرٌ يكتب شهادة وفاةٍ لجيلٍ لم يولد
بعد.

في المستشفيات لم يعد السؤال: أين الألم؟
بل أصبح: كيف يتسع المكان لكل هذا الألم؟

الممرات التي كانت ممرات شفاء، صارت ممرات انتظار لا
تعرف النهاية.

أصوات الأجهزة تختلط بأنفاس متعبة، وخطوات الأطباء
تسرع كأن الوقت نفسه ينفد قبل أن يُنقذ أحد.

كل زاوية فيها حكاية لم تكتمل، وكل باب يُفتح يحمل احتمالاً
لا يُقال بصوت عالٍ.

الأطباء يمضون يومهم كمن يقاتل دون توقف، نقصٍ دائمٍ في
كل شيء.

والمرضات يوزعن ما تبقى من القوة بين المصابين...
وكان النجاة لم تعد تكفي الجميع

في المكان نفسه، يركض المسعفون يحاولون إنقاذ ما يمكن
إنقاذه وسط فوضى لا تهدأ.

أيدي ترتجف وهي تُعيد ترتيب الأجساد بين الحياة والغياب،
وكلمات تنكسر قبل أن تُقال وهي تُبلغ أهلاً أن من انتظروه
لن يعود.

ومع ذلك...

يبقى هناك شيء لا يموت بسهولة:

يد تُمسك بيد،

نظرة تقول "اصمد"،

وصوت خافت يقول: الحمد لله.

أروي لكم ما أراه من وجوهٍ مرّت أمامي، ومن تفاصيل لم
ينتبه لها أحد.

أتابع الأطفال وهم يعيشون ما لا يشبه الطفولة، أسمع
ضحكاتهم حيناً، وانكساراتهم حيناً آخر.

كانت هند صغيرةً على الخوف، كما كنتُ أنا يوماً ما.

هربت من الموت، لكن الموت لم يتركها.

جلست داخل السيارة محاطةً بصمتٍ ثقيل، حولها وجوهٌ لا
تجيب، وأجسادٌ لا تتحرك، وأصوات الرصاص تقترب كأنها
تمحو المسافة بينها وبين المجهول.

رفعت الهاتف بيدٍ صغيرة ترتجف.

اتصلت بوالدتها، كأن الصوت وحده قادر على إنقاذها.

قالت بصوتٍ خافتٍ مكسور:

— الكل مات... لا تقلي الخط... تعالي خذيني... أنا
خائفة.

كانت كلماتها أكبر من عمرها...

لم تكن خوفاً فقط، بل كان فيها كل ما لا يُقال عن الحرب.
انهارت الأم على الطرف الآخر، لكنها حاولت أن تبقى قوية
من أجلها:

— أنا معك... خليك قوية... فرق الإنقاذ في الطريق.

لكن الطريق كان أطول من أن يُدركه أحد.

مرّت الساعات بطيئة وثقيلة.

صوتٌ من الهلال الأحمر حاول أن يبدو مطمئناً، لكن خلفه
كان يرتجف.

— ابقى يقظة... المساعدة قادمة.

وكانت مختبئة تنظر إلى السماء الرمادية وكأنها تسألها سؤالاً
لا يُجاب:

هل تعرفين أن طفلةً هنا تنتظر؟

آخر ما قالته كان أضعف من الهمس...

لكنّه كان أقوى من أي صراخ:

— لا أريد أن أموت.

ثم سكت الصوت.

وسكنت الطفلة.

وسكت العالم للحظة لا تشبه أي لحظة قبلها.

اقتربت الدبابة كوحشٍ أعمى.

وانتهت هند رجب...

لكن صوتها بقي عالقاً في الهواء، كنداءٍ لم يُلبّ.

لم يكن هناك طفلٌ واحد فقط يعيش هذا المصير.

بل كان هناك أطفالٌ أكثر لكل واحدٍ منهم وجعه الخاص،
وصمته الخاص، وطريقته في النجاة من شيء لا ينجو منه
أحد.

جلست بجانب ملك، كانت تنتظر في وجوه من حولها.

دموعها تنساب دون توقف

حولها أطفالٌ يكون من الخوف والجوع، وجدران الملجأ
تردّد صدى صرخاتهم كأنها لا تنتهي.

ثم أخذت نفساً عميقاً، وبدأت تغني بصوتٍ خافت.
صوتٌ ناعم، لكنه مثقل بالحزن.

توقّف الأطفال عن البكاء، لكن لم تكن هناك فرحة...
بل ساد صمتٌ ثقيل، كأن المكان كله ينتظر شيئاً لن يحدث.

ثم همست، كأنها تسأل العالم كله:
— لماذا نحن هنا؟

وفي مكانٍ آخر... كان الألم يأخذ شكلاً مختلفاً
. نظرتُ إلى كرم، رفيقنا في الحي. لم يكن يراني، لكنني
شعرت بحزنه. كان كرم يحلم أن يصبح لاعب كرة
يركض، يضحك، يطارِد الكرة مع أصدقائه.
لكن في لحظةٍ واحدةٍ تغيّر كل شيء.
فقد ساقبه.

أصبح يجلس على كرسيه الصغير يراقبهم من بعيد.
وفي ذلك اليوم...

ضاعت الكرة، ثم عادت نحوه دون قصد.

توقفت عنده... عند المكان الذي كان يجب أن تكون فيه
قدماه.

ساد الصمت.

حتى الأطفال لم يعرفوا كيف يتصرفون.

انحنى كرم ببطء، حمل الكرة إلى صدره للحظة.

ثم ابتسم ابتسامة باهتة، وأعاد رميها إليهم.

عاد اللعب...

وعاد الضحك...

لكنه لم يعد معهم.

ظلّ ينظر إلى الغبار خلف أقدامهم...

كأن قلبه وحده من يركض.

بينما جسده بقي عالقاً في اللحظة التي سُرقت منه قبل أن
يفهمها.

في غزّة... لا يأتي الفقد دفعةً واحدة، بل يترك أثره في
أجساد الأطفال بهدوءٍ قاسٍ لا يُحتمل.

أقدامٌ كانت تركض خلف الفرحة... فتوقفت قبل أن تصل.
وأيدٌ كانت تمتدّ للعب... فعادت عاجزةً عن الإمساك بأيّ
شيء.

وعيونٌ كانت ترى العالم جميلًا... انطفأت فيها الدهشة قبل
أن تكتمل الطفولة.

يبقون صغارًا في العمر، لكنهم يكبرون في الألم.

ومع ذلك... حين تظنّ أنّ كلّ شيءٍ قد انتهى، يهمس طفلٌ
منهم للحياة:

ما زلتُ هنا... رغم كلّ ما لم يبقَ منّي

وحين ظننت أنني بلغت أقصى ما يمكن للحزن أن يفعله،
قادني بصري إلى مشهدٍ آخر.

رأيتُ رجلًا يخرج مسرعًا من المستشفى، وقلبه معلق
بصوت طفلٍ سيولد بعد دقائق، وزوجته تنتظر عودته بأبسط

الأشياء... وأكبر الفرح.

لم يكن يفكر إلا بالعودة.

خطوة واحدة خارج الباب... ثم انقطع كل شيء.

لحظة قصيرة اقتحمت طريقه، سرقت منه العمر كله.

رصاصة في الرأس أنهت كل شيء قبل أن يبدأ.

في الداخل صرخ الطفل صرخته الأولى.

وفي الخارج رحل أبوه قبل أن يسمعها.

لم يحمله.. لم يرَ وجهه... لم يعرف إن كان يشبهه أم لا.

اختار لابنه اسمًا قبل أن يراه... يمان.

جاء إلى الدنيا، وفي اللحظة نفسها غاب أبوه عنها...

وبين الصرخة الأولى والرحيل الأخير، بقي الاسم هو

الشيء الوحيد الذي جمعهم.

ما ذنبنا نحن الأطفال؟

ما ذنب طفلٍ لم يتعلَّم بعد كيف يفرِّق بين صوت اللعب

وصوت الخوف؟

يأتي إلى الدنيا صغيرًا.. ثم يُطلب منه أن يكبر قبل أن يفهم لماذا وُجد.

يمشي فوق أرضٍ لا تحفظ خطواته،
ويحمل في عينيه أسئلة أكبر من عمره:

- لماذا يختفي من يحبهم فجأة؟ ولماذا لا تعود الأشياء كما كانت؟

لا يطلب معجزة ...
فقط أن تبقى يده في يد أمّه دون أن ترتجف،
أن ينام وهو يتأمل النجوم، لا أن يخاف من السماء،
أن يضحك دون أن يترقب اللحظة التي تلي ضحكته.

كنتُ أقفُ هناك... ولا أحد يراني، غير أن صوتها وحده
كان خيطاً يربطني بالحياة كلما نادتنني أو تحدثت إليّ:

ما زالت تناديني، دون أن تعلم أنني أسمعها ولا أستطيع الرد.
— إيلّا يا ماما... قلبي لا يفهم الغياب.

أجلس أمام منزلنا المهدم، خوفاً أن تمرّي ولا تجديني.
أناديك في صمتي، وأحادثك في وحدتي، وأبتسم حين أتذكر
ضحكتك... ثم أبكي؛ لأن الضحكة لا تعود.

يا طفلي، رغم رحيلك...

لم يأخذك الموت مني؛ أخذ جسدك فقط.

أما روحك فبقيت هنا...

تسكن دعائي، وتكبر في قلبي، وتنام بجانبني.

كنتُ أضمك إلى صدري وأقول:

“لا تخافي يا ابنتي... أنا هنا.”

وأنا أعلم...

أن الأم حين تقول “أنا هنا”

لا تمنح الأمان فقط...

بل تحاول أن تمنع الغياب من أن يكون حقيقياً.

وأنا أراها تبكي...

أقف عاجزة أمامها، أمدّ يدي إليها كل مرة فيرتدّ الفراغ إليّ.

كأنني أملك كل شيء فيها... إلا القدرة على الوصول إليها.

حتى في لحظات السكون، لم تكن الطفولة هناك آمنة تمامًا.

في تلك الليلة رأيت يوسف مدّ ذراعه نحو أمه بصمت
فهت ما لم يُقال، فأخذت القلم وكتبت اسمه على جلده بخطٍ
مرتجف.

ظلّ يحدّق في الحروف قليلاً، ثم سألها بصوتٍ خافت:
— عشان إذا متّ... يعرفوني؟

تجمّد الهواء في صدرها.
لم تجد جواباً يليق بطفلٍ يسأل الحياة بهذا الشكل.
فاكتفت بأن ضمته بقوة، كأنها تحاول أن تؤجل العالم كله بين
ذراعيها.
لكن يوسف سبق دمعته... وبكى.

وفي زاوية أخرى، كانت تالا تحدّق في اسمها المكتوب على
يدها الصغيرة.

لم يكن اسمًا فقط... كان شيئًا يشبه الخوف حين يُكتب على الجسد.

حاولت أن تنام، لكن كل مرة تُغمض عينيها، تشعر أن الحروف تظل مفتوحة بداخلها.

نهضت ترتجف من البرد، وبدأت تمسح الاسم بكمّ ثوبها.
مرة... ثم مرة... ثم مرة أخرى.

تبكي بصمت، وكأن اختفاء الاسم يمكن أن يؤجّل ما لا يمكن تأجيله.

وهكذا، لم يعد الأطفال يخافون الظلام وحده...
بل أصبحوا يخافون أن يُكتبوا قبل أن يكتملوا.

في مدينتنا...

تمسح الأم الغبار عن وجه صغيرها، ثم تقول له بصوتٍ مرتجف:

— اقرأ آية الكرسي يا حبيبي، الله معنا.

لم يكن لديهم ما يكفي من الأمان...
لكن كان لديهم ما يكفي من اليقين ليبقوا واقفين.

يحفظون القرآن تحت القصف،
ويرددون الأذكار في طرقات النزوح،
ويودّعون شهداءهم بالحمد،
كأن قلوبهم تعلم أن ما عند الله أوسع من هذا الوجد كله.

في مدينة تنام على الموت كل ليلة،
كان الصباح يبدأ دائماً بـ"الحمد لله".

ورغم أصوات الحرب التي لا تهدأ، يبقى صوت القرآن يعلو
في المكان بهدوءٍ غريب، كأنه لا ينتمي إلى هذا العالم.

لم يكن الأطفال يتعلمون الآيات لأن أحدًا فرضها عليهم،
بل لأنهم وجدوا فيها شيئًا يشبه الأمان حين يغيب كل شيء.

ملاذًا لا تهدمه القذائف، ولا تطاله الفوضى.

كانت الأمهات يرددن، والأطفال يكررون، والقلوب الصغيرة
تتعلم كيف تبقى ثابتة وسط هذا الانكسار.

وكان هذه الأرض، رغم ما يعتصرها من الألم، ما زالت
تُثبت يقينًا بين الركام.

بعد ليلة قصف طويلة كان الهواء مشبعًا بصمتٍ غريب،
ذلك الصمت الذي لا يشبه الهدوء، بل يشبه الترقّب بعد طول
خوف.

ومع كل صباح، ينهض الجميع على نفس السؤال الصامت:
هل اليوم سيكون أخف؟ أم أننا فقط نتعلم شكلاً جديدًا من
الانتظار؟

ثم جاء الصوت.

ليس انفجاراً، ولا صوت طائرة، ولا صراخاً يسبق الجري.
بل صوتٌ بشريّ... يتردّد عبر مكبّرات قديمة في
الساحات، عبر الراديوهات، عبر الهواتف التي كانت طوال
الليل ترتجف من الأخبار:

“يُعلن وقف إطلاق النار... ابتداءً من هذه اللحظة.”

لم يُفهم الكلام من أول مرة.

كل خبر يمرّ... يترك خلفه ارتباكاً صغيراً، لا يشبه الفرح
ولا يشبه الخوف.

في الأزقة والأحياء، لا أحد يرفع رأسه كثيراً.
حتى الريح تمرّ بحذر، كأنها تعرف أن المكان ما زال في
خطر.

هنا، لا تُقاس الحياة بغياب الموت فقط،
بل بقدرة الناس على الاستمرار، رغم أنهم لم يُعطوا فرصة
حقيقية للراحة.

كانت المدينة ساكنة بطريقة لا تشبه الهدوء.

بل تشبه شيئاً توقف عن النزيف لكنه لم يلتئم بعد.

الغبار ما زال معلقاً في الهواء، كأنه لا يعرف إن كان عليه أن يسقط أم يبقى شاهداً.

الشوارع رمادية، والمباني نصف واقفة، والنوافذ مفتوحة على فراغ طويل.

في زاوية شارع مهذّم، لعبة طفل مغطاة بالتراب.

إلى جوارها حذاء صغير وحيد... كأن الخطوة الأخيرة لم تُكمل طريقها.

لكن بين الركام، كانت هناك حياة صغيرة لا تزال تتنفس:

قطة تمرّ بحذر، ونبتة خرجت من شقّ ضيق في الأرض.

“يُعلن وقف إطلاق النار... ابتداءً من هذه اللحظة.”

لم يفهم في البداية.

كان الكلمات وصلت، لكن بعد أن انتهى كل شيء
رأيت الناس ... يخرجون ببطء، كأنهم لا يعرفون كيف
يمشون في وقتٍ بلا قصف.
أم تترك يد طفلها لأول مرة دون خوف.
رجل رفع رأسه كأنه يتأكد هل السماء صافية أم مازالت
الطائرات تحلق .
وشابة تبكي... كأنها تتذكر الحياة بعد أن نسيتها طويلاً

ثم رأيت نفسي.
لم أكن أركض.
لم أكن أعود.
كنت أمرّ فقط... كأن الأرض تتذكرني، لكنني لم أعد كما
كنت.

وفجأة... مرّ بي مشهدٌ من زمنٍ آخر.
قبل الحرب.

كنت أركض بين الحقول، بثوبي الأصفر الذي كان يتمايل
ويتراقص مع النسيم، و طاقيتي البنية تنزلق قليلاً فوق
رأسي، بينما تمتد أمامي المساحات الخضراء تحت ضوء
الشمس.

أركض بلا خوف، كأن الأرض كلها لي، وكأن الغد شيءٌ
بسيط جداً لا يحتاج تفكيراً.

كان الضوء أخف، والضحك أقرب، والطريق لا يعرف
معنى النهاية.

ثم انقطع المشهد داخلي... كأنه لم يعد ينتمي لهذا المكان.
وفي تلك اللحظة... بكت المدينة.

لم تبكِ لأن الحرب انتهت.

بل لأنها رأتني.

مررت بهدوء ، وشيءٌ في داخلي كان يعرف أنني لن أعود
معه.

كأنني لا أغادر المدينة فقط...

بل أترك الطفلة التي كانت تركض في الحقول هناك، بعيداً
جداً عني، ولا أستطيع العودة إليها.

النهاية

جلست أمي وحدها، ويدها على صدرها كأنها تمسك غياباً
لا يرى.

كان المكان ساكناً همست بصوتٍ مكسور: «إيلا...»
ثم سكنت، كأن الاسم أكبر من أن يُقال كاملاً.

وبعد لحظة قالت: «رحلت... نعم رحلت.»
رفعت عينيها نحو السماء: «لكني أعلم أنك هناك... حيث
لا يُوجع أحد.»

ابتسامة خفيفة مرت على وجهها رغم الدموع: «في
الجنة... أليس كذلك يا ابنتي؟»
لم تنتظر جواباً. ضمت الغطاء إلى صدرها وهمست:

«سأصبر... حتى ألقاك.»
وسكن كل شيء.

وفي مكانٍ أبعد من الضجيج... كنتُ أراها.
لا من بعيد، ولا من قريب... بل من مكانٍ لا يُقاس
بالمسافة.

كانت هادئة هذه المرة، ترفع وجهها نحو السماء كأنها
تعرف الطريق.
همست: «أنا هنا يا أمي...»

في مكانٍ لا يصل إليه الخوف، ولا تثقله الأخبار، ولا تُطفئه
الحرب...
أدركتُ أنني بخير.

شعرتُ بالطمأنينة لأول مرة، وكأن العالم كله هداً داخلي.
وأخيراً... سكنتُ، ولم أعد أبحث عن شيء

وفي الختام...

في الأخبار كانت الجملة واضحة، مرتّبة، مطمئنة: تم وقف إطلاق النار.
أمّا الواقع... فما زال القتل والتجويع والتنكيل مستمرّاً.
لم يكن الكذب في الخبر نفسه؛
بل في الطريقة التي طُلب منا أن نُصدّق بها ما لم يتغيّر.
أن الكلمات قادرةٌ على إيقاف ما تعجز عن إيقافه الأفعال،
وأن الوعود وحدها تكفي لتضميد ما مزّقته الحرب.
قليل إن الحرب انتهت، لكن أحداً لم يُخبر الواقع بذلك.

لمتابعة الكاتبة جليّة ناصر على:

jaleela947@ إنستجرام

Jalila nasir@ تويتر

https://t.me/shay_minni قناتي بالتلجرام

لمتابعة دار أكاديمية الكاتب على الفيس بوك:

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

لمتابعة أكاديمية الكاتب على التليجرام وحضور المحاضرات الشهرية المجانية:

أكاديمية الكاتب للتدريب والاستشارات

اللينك:

<https://t.me/AlKatebAcademyforTraining2023>

@ جميع حقوق النشر محفوظة لـ

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

٠١١١٣٣٥٧٤٧٣

